علاقة الممالك النوميدية بالصراع القرطاجي الروماني

شهد شمال افريقيا خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد صراع حادا بين قوتين عظيمتين قرطاج ذات النفوذ التجاري البحري و روما الصاعدة بقوتها العسكرية و السياسية هذا الصراع المعروف بالحروب البونيقية لم يكن مجرد مواجهة عسكرية بين دولتين بل كان مسرحا لعلاقات و تحالفات معقدة شملت قوى محلية أخرى أبرزها الممالك النوميدية التي لعبت دورا حاسما في توجيه مسار الأحداث

1-الملك سيفاكس (توفي عام 203 ق.م)

يعتبر الملك سيفاكس أقدم ملوك نوميديا الغربية (مازيصولة المعروفين في المصادر القديمة، إذ لم تذكر هذه المصادر سلفا له، غير أنه ينبغي أن نتذكر بأن المصادر المذكورة لم تورد من أخبار هذا الملك ودولته سوى ما يتعلق منها بأحداث الحرب القرطاجية الرومانية الثانية (218ق.م - 202ق م) مهملة حياة سيفاكس قبل تلك الحوادث وأثناءها وكذلك أخبار مملكته قبل ذلك. ونظرا لهذا السكوت فإننا نجهل أسماء مؤسسي هذه الدولة والظروف التي نشأت فيها وتاريخ ظهورها ومراحل تطورها إلى أن بلغت ذلك النضج الذي كانت عليه عندما نشبت الحرب الثانية بين القرطاجيين و روما.

لكننا نعلم من خلال المصادر أن سيفاكس كان متقدما في السن أثناء تلك الحرب ويساعده ابنه فيرمينا على تسيير شؤون المملكة، وتظهر صورته في بعض نقوده في شكل فارس تجاوز الخمسين سنة ذي لحية طويلة رفيعة ووجه مكدود أذابته السنون و هموم الملك و السياسة

ويبدو أن شهرة سيفاكس كانت ذائعة وأن قوة مملكته كانت معتبرة بجيشها القوي عشية اندلاع الحرب القرطاجية الرومانية الثانية الأمر الذي جعل كل طرف يخطب ود هذا الملك النوميدي القوي ويعمل على استمالته وكسبه ضد الخصم. ويظهر أن سيفاكس لم يكن على وفاق تام مع القرطاجيين آنذاك وأن الخصومة كانت قائمة بين الطرفين حول المدن الساحلية والموانئ الواقعة على سواحل مملكته، إذ كان سيفاكس يعمل على ضم تلك المراكز وجعلها منافذ لمملكته على العالم المتوسطي، بينما كانت الإستراتيجية القرطاجية تقتضي الإحتفاظ بها لضمان الإمدادات للجيوش المرابطة بإسبانيا من جهة وتواصل الحركة التجارية بين العاصمة قرطاجة والغرب من جهة أخرى. واستغل سيفاكس انشغال قرطاجة بالحرب وغياب جيوشها عن المنطقة إذ كانت تحارب بإيطاليا تحت قيادة حنبعل فضاعف من ضغطه على المدن والمراكز الساحلية المحاذية لتراب مملكته، فأوفدت إليه قرطاجة لطمأنته ومحاولة كسبه إلى جانبها، غير أن تلك المساعي السياسية لم يكتب لها التوفيق. أما روما فكانت تراقب تطور الوضع بين القرطاجيين وسيفاكس عن كتب وتنتظر فرصة الإستفادة من القطيعة بينهما، ولم تكن روما بعيدة عن الساحة إذ كان رسلها يترددون على بلاط سيفاكس لمراودته وإثارته ضد القرطاجيين، فكانوا يقدمون له عروضهم المغرية مقابل تحالف مملكته مع جمهورية روما . وقد نجحت الدبلوماسية الرومانية فيما أخفقت فيه قرطاجة مؤقتا وتمكن المفاوضون الرومان من الحصول على تحالف من سيفاكس ضد قرطاجة عام 213 ق.م. واقتضى التحالف أن يجهز الملك جيشا نوميديا ويجتاز به البحر إلى اسبانيا المقاتلة القرطاجيين إلى جانب الرومان، وتذكر المصادر بأن سيفاكس التقى بالأمير النوميدي الشاب مسينيسا لأول مرة هناك وكان إذ ذاك على رأس وحدة فرسان نوميديين أوفدها أبوه غية لتقاتل إلى جانب حلفائه القرطاجيين وأنهما تقاتلا في إسبانيا لأول مرة وقد شاءت الأقدار فيما بعد أن يتبادلا الصفوف فينتقل مسينيسا إلى جانب الرومان ويعود سيفاكس إلى القرطاجيين ويلتقي الوجهان في معارك فاصلة بأرض نوميديا.

وتجدر الإشارة إلى أن انضمام سيفاكس إلى الرومان سبقه تحالف بين غية ملك نوميديا الشرقية والقرطاجيين، وكان هذا الملك قبل ذلك على خصومة معهم بسبب الحدود.

ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن انضمام سيفاكس إلى جانب الرومان له علاقة بالمصالحة المتبوعة بالتحالف بين القرطاجيين وجارهم غية.

ومهما كان أمر هذه الملابسات فإن روما كانت تتوخى أغراضا عسكرية من وراء تقربها من الملك سيفاكس ومنها فتح جبهة وراء الجيش القرطاجي المرابط بإسبانيا وعزله عن مصادر الأمداد الموجودة بشواطئ المغرب والتي كان الكثير منها تحت سيطرة سيفاكس. ثم تقوية صفوف جيشها بإسبانيا في محاولة للضغط على البلاد الخاضعة للقرطاجيين عسى أن يؤثر ذلك الضغط على معنويات حنبعل الذي كان يطوق روما فيفك عنها الحصار.

غير أن سيفاكس لم يطل بقاءه بإسبانيا لصالح الرومان فعاد وغير موقفه بعد مفاوضات طويلة جرت بينه وبين القرطاجيين ولا علم لنا بمحتواها أو مراحلها وانتهت بعودته إلى حلفائه الطبيعيين. وتذكر الروايات التاريخية أنه أصبح صهرا للقرطاجيين منذئذ حيث تزوج إحدى أميراتهم المعروفة بسفونزبة ابنة عزر بعل جسكون، وهي فتاة كان الأمير مسينيسا موعودا بها حسب هذه الروايات واستفادت قرطاجة بهذه المصاهرة التي توجت بعودة نوميديا الغربية إلى صفوف القرطاجيين فتعززت جبهتهم الافريقية وأصبح المغرب كله صفا واحدا إلى جانبهم. لكن هذه الوضعية لم تدم طويلا حيث أنه بعد وفاة غية ملك نوميديا الشرقية ماسوله عام 207 ق م نشب خلاف بين أفراد البيت المالك على وراثة العرش الماسولي فلم تتمكن قرطاجة من السيطرة عليه وتسويته بصورة ترضي جميع الأطراف المتنازعة على الملك ثم أن سيفاكس قد لعب دورا في ترتيب شؤون الإستخلاف بصورة حققت له مكاسب سياسية وربما ترابية أيضا فأصبح أقوى ملك في بلاد المغرب كلها بعد قرطاجة التي عززت علاقتها به نظرا لمكانته المتعاظمة في المنطقة من جهة ورغبتها في الإحتفاظ بجبهة المغرب متماسكة قوية من جهة أخرى. غير أن الأمير مسينيسا المرابط بإسبانيا آنذاك إلى جانب الجيش القرطاجي كان تقديره للوضع العسكري العام مختلفا عن تقدير كل من قرطاجة وسيفاكس كما أن حساباته السياسية كانت مغايرة تماما لما كان يجري بمملكة أبيه بين المتنافسين على العرش، إذ أنه شهد تراجع القوة القرطاجية أمام زحف الجيش الروماني بشبه الجزيرة الإيبيرية وفشل محاولات تعزيز جيش حنبعل بإيطاليا، كما كان على دراية بما يمكن أن ينجر من انعكاسات سلبية ناجمة عن الخلافات السياسية القائمة بقرطاجة نفسها حول مغامرة حنبعل بإيطاليا، واتساع مجال المواجهة القرطاجية الرومانية، ثم أنه كان واثقا من حصوله على مؤيدين من نوميديا الشرقية ممن مست مصالحهم الإضطرابات الناشئة عن الحروب ووراثة عرش غية ضف إلى ذلك أنه كان يطمح في أن يؤول إليه عرش المملكة بعد وفاة مستحقيه إن كل هذه الأمور جعلت مسينيسا يلتجئ إلى الحل الخارجي المفروض بقوة السلاح وهكذا فاوض الرومان في القضايا القائمة العسكرية منها والسياسية بما يحقق مصلحة روما منها ومصلحته، واتفق مع مفاوضيه على العمل المشترك الرامي إلى قلب الأوضاع الصالح الطرفين، أي هزم القرطاجيين وحليفهم سيفاكس عسكريا، وتمكين مسينيسا من نوميديا . وقد مرت هذه الحركة السياسية سنة 206 ق.م. وأحوال نوميديا الشرقية مضطربة من هنا بدأت متاعب سيفاكس إذ أصبحت حياته ومملكته هدفا عسكريا وسياسيا للرومان ومسينيسا مثلما استهدف حنبعل ومن وراءه قرطاجة ولم ينعم سيفاكس بالمجد طويلا إذ ما لبث الوضع العسكري بالمغرب أن توتر بعودة مسينيسا إلى نوميديا (206 قم) وشروعه في مناوشة خصومه، وتهيئة الوضع للانزال الروماني المتفق عليه بالتراب القرطاجي. واتضحت متاعب سيفاكس بعد الانزال الروماني عام (204 ق.م) حيث كان عليه أن يواجه هذا الإنزال المفاجئ قبل أن تقع قرطاجة تحت طوقه، إذ لم يكن لديها من الجيش ما يحول دون هذا التطويق، فضم سيفاكس جيشه إلى جيش قرطاجة الذي كانت تحت قيادة عزر بعل بينما كان مسينيسا وجيشه إلى جانب الجيش الروماني بقيادة كورلينيوس شبيون الذي لقب بالإفريقي لانتصاره بإفريقيا، وتجلت بوادر نهاية سيفاكس في أخذ الرومان ومسينيسا له على غرة وإحرازهم نصرا كبيرا عليه وعلى عز ربعل في شهر أبريل 203 ق.م)، وقد غيرت تلك الهزيمة من وجه الحرب ومستقبل القتال بين الطرفين حيث كانت خسارة القرطاجيين وسيفاكس فيها كبيرة، ثم أن المحاولة التي قام بها سيفاكس وصدر بعل قصد كسر الجيش الروماني ورجال مسينيسا بسهل الدخلة (أعالي مجردة) في شهر جوان من نفس السنة لم تحقق الهدف المرغوب، بل أنها أسفرت عن هزيمة أخرى تعقب أثرها المنتصرون جيش سيفاكس المتوجه نحو كرطا (قسنطينة والحقوا به هزيمة زاد من فداحتها وقوع سيفاكس أسيرا بيد خصمه مسينيسا الذي دخل كرطا مظفرا، فانتقم منه ومن زوجته القرطاجية سفونزية. وهكذا كانت نهاية الملك سيفاكس ويها سقطت مملكته بيد خصمه مسينيسا الذي اعترفت به روما ملكا على نوميديا كلها منذ ذلك الحين كما فقدت قرطاجة أكبر حليف وأقوى سند لها في بلاد المغرب فكان ذلك أحد العوامل القوية الهزيمتها المقبلة في معركة زاما عام (202) التي دارت بين قوتين غير متكافئتين وإن قاد فيها الجيش القرطاجي القائد الشهير حنبعل، إذ ضاعف الرومان جيشهم القوي المهية للمعركة الفاصلة وجيش مسينيسا المعزز بنشوة الإنتصار، بينما كان قوام الجيش القرطاجي رجال أنهكهم عناء السفر (رجال حنبعل الذين عادوا معه من حروب إيطاليا) و آخرون ذهبت بقواهم الهزائم السابقة.

والخلاصة أن الفترة التي نعرفها من حياة سيفاكس لا تتجاوز عشر سنوات الأخيرة من حياته (213-203 ق.م قضاها في خضم الأحداث والتقلبات المواكبة التغير ميزان القوى بين الطرفين روما وقرطاجة).

2-الملك ماسينيسا (238-148ق.م)

لعل مسينيسا أكثر حظا من خصمه سيفاكس بين صفحات التاريخ، ذلك أن النصوص القديمة احتفظت بحجم أوفر من المعلومات حوله على عكس سيفاكس ويفضل هذا الحجم النسبي من المعارف التاريخية أمكننا أن نلم بقسط من الأخبار المتعلقة بحياة هذا العاهل النوميدي ومن خلالها بعض أمور مملكته و علاقتها بجيرانها

ولد مسينيسا عام 238 ق.م. في زوبعة من الأحداث العسكرية كان شرقي نوميديا وتراب قرطاجة مسرحا لها، هي حرب الجيش القرطاجي المتمرد المعروفة بحرب المرتزقة التي حدثت عقب توقف القتال بين روما وقرطاجة الحرب البونيقية الأولى(264-241 ق.م.)

ولا يتسع المجال هنا للتعرض إلى هذه الحرب لكننا نكتفي بالإشارة إلى أنها مثلت نوعا من النفور الشعبي ضد الدولة القرطاجية التي اشتطت في مطالبة السكان بالمغارم وأضرت بهم من خلال مطالب الحرب، إذ لم يقتصر التمرد على أفراد الجيش المأجور المتعدد الأجناس الذي مثل فيه النوميديون نسبة عالية، ولكنه ضم مجموعات كثيرة من الأهالي، فاكتست الأحداث ثوب ثورة عارمة طليعتها جيش متمرد وخليفتها مدنيون يشدون من أزره، وكان قائد الثورة نوميديا يدعى مطوس،وتحدثت النصوص القديمة عن احتضان السكان لهذه الثورة، ودعمهم لها بالمال والرجال بحيث كانت النسوة تتبرعن بحليهن للمجهود الحربي، ثم أن قرطاجة عجزت عن السيطرة على هذا العدد وكادت المدينة تسقط فريسة له لولا استنجاد قائدها عملقار ببعض الأمراء النوميديين ومنهم نرهفاس فتمكن من اخماد الثورة والسيطرة على الموقف العسكري بالبلاد. وكان نرهفاس أحد أفراد البيت الماسولي النوميدي الذي كان يسيطر على الإمارة المجاورة للتراب القرطاجي، وهو البيت الذي أنجب مسينيسا ، غير أننا لا نعلم شيئا عن دور غية والد مسينيسا في تلك الأحداث وبالتالي موقفه منها مع أنه كان أحد أعيان هذا البيت إن لم يكن ملكا بعد أنذاك، مع الإشارة إلى أن والد غية زيل الصن قد شغل وظيفة حاكم مدينة دوقة تحت لقب شافط أو سبط على الطريقة البونيقية، مما يدعو إلى الاعتقاد بأنه كان يحكم المدينة تحت رعاية قرطاجة أو على وفاق كبير معها

ولد مسينيسا إذن بمكان ما قد يكون مدينة دوقة التي أقيم له ضريح فيها بعد وفاته تملأ الحرب أكبر حيز من اهتماماته ويسجل التاريخ أشهر الأحداث التاريخية التي كان فيه طرفا ويتوفى والحرب البونيقية الثالثة (149-146) على أشدها بين روما وقرطاجة وهي حرب كان سببا رئيسيا في إشعالها. فلا غرابة إن تكرر ذكره أكثر من غيره لدى مؤرخي تلك الحروب من الإغريق والرومان فذلك ليس من باب التمجيد البطولي أو العرفان له بالفضل ولكن سياق أخبار تلك الحروب اقتضى ذلك. ومن ثم فإننا لا نعثر عند أولئك المؤرخين ما يفيدنا في معرفة طفولة مسينيسا وكذلك أطوار حياته الخاصة وأخبار مملكته منفصلة عن الأخبار المتعلقة بروما وذلك أن أول ذكر له في تلك المصادر كان بمناسبة وجوده على رأس فرقة نوميدية ترابط إلى جانب الجيش القرطاجي بإسبانيا عام (212) ق.م) وعمره آنذاك حوالي 26 سنة، ثم توالى ذكره مرتبطا بمواقفه من الطرفين المتحاربين، ونال اهتماما أكثر لدى أولئك المؤرخين عندما سجل ذلك الموقف الشهير من قرطاجة بعد وفاة أبيه (207 ق م) بانقلابه ضدها وانضمامه إلى الرومان فأصبح بأعماله المناوئة للقرطاجيين وحلفائهم النوميديين يحظى بشيء من المدح وفي سياق ذلك وردت بعض الإشارات المتعلقة به وبأحوال مملكته منهاعلمنا أنه قضى جزءا من طفولته وشبابه في مدينة قرطاجة سيرا على عادة الأعيان النوميديين الموالين القرطاجة الذين كانوا يوفدون أبناءهم إلى عاصمة الشمال الإفريقي قرطاجة لينشأوا فيها ويتشبعوا بحضارتها استعدادا للسيادة والملك.

وما عدا هذه الإشارة فإننا نجهل جميع ما يتعلق بظروف نشأته وتكوينه وتنقلاته قبل أن يرحل إلى شبه الجزيرة الإيبيرية محاربا. لكن المؤرخ اليوناني بوليبيوس الذي التقى به بصحبة القائد الروماني سيبيون الإيميلي قد خصه ببعض الوصف الجسماني والمعنوي أضاف إليه كتاب آخرون نتفا مختلفة، منه أن مسينيساء كان شديد البأس قوي الإرادة ذا عزيمة لا تثنيها المحن والعوائق والأخطار، وكان طويل القامة قوي البنية محتفظا بحيويته ونشاطه ولم تنل الشيخوخة من صحته ولا أثرت عليه السنون والأهوال، حيث كان قادرا على قيادة جيشه وهو في سن الثمانين ويقضي يومه متأهبا على صهوة جواده دون أن تظهر عليه علامات التعب أو الإنهاك، ووصف بأنه كان لا يأبه بتقلبات الطقس فيستقبل المطر والبرد مكشوف الرأس وهو في سن متقدمة دون أن يناله الضرر وليس معنى هذا أن الخشونة كانت شرعته في الحياة بل ذلك يكمن في قدرته على التكيف مع الظروف وحمل نفسه على تقبل مقتضياتها. أما عندما يكون الظرف غير الظرف ويستقر في قصره بعاصمة ملكه فإنه يحيط نفسه بهالة من سعة العيش والترف لا تقل عما كان عليه حال أنداده من ملوك العصر، فيتناول طعامه وشرابه في أواني من الفضة والذهب، وتقام له حفلات الموسيقى اليونانية الراقية في جو تملؤه مظاهر أبهة الملك والسلطان. إنه رغم ما يبدو على هذه النتف من المبالغة في إطراء مسينيسا فإنها لا تبعد كثيرا عن الحقيقة، ذلك أن الرجل كان عسكريا قضى جل حياته محاربا فلا غرو إن اكتسب هذه الخصائص الجسمانية والنفسية التي نالت إعجاب المؤرخين فأثبتوها في كتبهم.

و يمكن تقسيم حياة ماسينيسا من حيث مراحلها الكبرى إلى ثلاثة أقسام هي: مرحلة الطفولة والشباب وتمتد من سنة ميلاده عام 238 إلى 206 ق.م. وهي مرحلة تكاد تكون مجهولة لدينا باستثناء بعض الأخبار المتعلقة بالسنوات الأخيرة منها التي قضاها بإسبانيا محاربا في صفوف القرطاجيين ثم المرحلة الممتدة من 206 إلى 203 قم، التي قضاها مكافحا في سبيل حصوله على كرسي الخلافة. ومع قصر هذه المرحلة إلا أنها من أصعب مراحل حياته وأكثرها نشاطا وحيوية وتأثيرا في مجريات الأحداث العسكرية الجارية بالمنطقة المغربية وخارجها، إذ شهدت هذه السنون من عمره تخليه عن القرطاجيين وانضمامه للرومان ثم انتقاله إلى نوميديا التي تعرض فيها للمطاردة من طرف خصومه بها، إلى أن تمكن من هزمهم بمساعدة حلفائه الرومان كما سبق ذكره أما المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته فتمتد من سنة 203 وهي سنة حصوله على صولجان الملك إلى عام 148 ق.م حيث فارق الحياة عن عمر يناهز الثمانين سنة، وفيها حقق مسينيسا أمجاده السياسية والعسكرية الكبرى حيث تمكن من تحقيق الوحدة بين شطري نوميديا وبلغ بالمملكة أقصى اتساعها إذ امتدت حدودها من نهر الملوية غربا إلى السيرت الكبير شرقا وكاد يحقق حلمة السياسي بابتلاعه ممتلكات القرطاجيين كلها وضم مدينتهم إليه لولا تدخل روما و معالجة الأجل.

ولا تدري إن كان مسينيسا قد لاحظ بوادر وقوع المغرب كله تحت الهيمنة الرومانية التي مهد لها بعمله على إزالة الحاجز القرطاجي من الوجود. ثم إننا لا نعلم إن كان يتوقع أن الرومان لن يكتفوا هذه المرة بهزم القرطاجيين وإجبارهم على تسليم أسلحتهم وأموالهم وهدم حصونهم ثم يعودون من حيث أتوا كما فعلوا من قبل عقب موقعة زاما. وهل كان متيقنا من أن أبناءه سوف يتمكنون من مواصلة نهجه الساعي إلى تحرير المغرب كله من الهيمنة الأجنبية دون أن يصطدموا بمصالح روما في المنطقة أو على الأقل أنهم سيتمكنون من المحافظة على الإرث الكبير الذي أفنى أبوهم عمره في جمعه لهم من غير أن يثير ذلك هواجس حلفائه الرومان وأطماع المتطلعين منهم لاستغلال الأوضاع المترتبة عن انتصار جيشهم في إفريقيا ؟ إننا لا نستطيع القول بأن واحدا من هذه التصورات أو غيرها قد دار بخلد مسينيسا وهو يشاهد بداية زوال قرطاجة من الوجود، ذلك أننا نجهل نواياه الحقيقية وليس في الروايات التاريخية ما يساعدنا على ترجيح هذا التصور أو ذاك. لقد ترك هذا الصمت باب الإفتراضات مفتوحا أمام المؤرخين فتباينت تفسيراتهم المواقف مسينيسا واختلفت تقديراتهم لمدى ما كان يتمتع به الرجل من بعد نظر أو حصافة رأي.